

حديث المساء: دفاع (١)

طه حسين

كوكب الشرق

٤ يناير ١٩٣٤

أريد أن أنهض بأعباء هذا الدفاع تطوعاً للخير، وتصدقاً ببعض ما أملك من الجهد، وابتغاء للرحمة من حيث هي رحمة، وحباً للإشفاق من حيث هو إشفاق.

ولست أدري، لم يكن المعارض قاسياً دائماً؟! ولم تكون المعارضة قسوة خالصة؟! ولم يقطع المعارضون للأيام على أنفسهم عهداً أن يكونوا قساة لا يعرفون الرحمة، وجفاة لا يعرفون اللين، ولم يقل أحد من أصحاب اللغة ولا من أصحاب السياسة إن المعارض لا ينبغي أن تكون إلا قسوة خالصة وشدة لا هودة فيها ولا رفق؟!!

وليكن رأي أصحاب اللغة ما يكون، وليكن رأي أصحاب السياسة ما يكون، وليغضب المعارضون أو ليرضوا، وليعرف القراء أو لينكروا؛ فإني مُصِرُّ اليوم على أن أدافع عن الوزارة لأنني أصبحت اليوم شديد الميل إلى الرحمة، عظيم الرغبة في الرفق والإشفاق.

وأنا أريد أن أنتهز هذه الفرصة، وأن أدافع عن الوزارة في هذا الفصل قبل أن تعاودني قسوة المعارض، أو قبل أن أعود أنا إلى قسوة المعارض، أو قبل أن تذهب عني هذه العاطفة التي تجعلني رفيقاً رحيماً، وتعطفني على الضعفاء الذين لا يجدون لهم رداءً يقيهم، ولا ذائداً يحميهم، ولا مناضلاً يرد عنهم عدوان المعتدين.

والمعتدون هنا هم هؤلاء المعارضون الذين يصفون الوزارة بالضعف والقصور أو العجز والتقصير، ويسمون سياستها سياسة الركود. ثم لا يكتفون بذلك، بل يسرفون؛ فيتفكهون، ويتندرون،

ويقترحون على الرَّجُل الطَّيِّب حَقًّا وَصِدْقًا كما تقول الشعب أن يستريح كل ما هَبَّتْ عليه عاصفة أو هدأت عنه زوبعة، وأن يستريح لا في داره كما يستريح الناس، بل في سفينة من سفن الدولة تصعد به في النيل وتهبط به إلى البحر كما يستريح المترفون.

هذا كثير! وأكثر منه أن الذين يكتبونه لا يشعرون بأنهم يَظْلِمُونَ ويسرفون في الظلم، وبأن هذا النوع من الفكاهة اللاذعة والدعابة المُرَّة لا ينبغي أن يُساق إلى الرَّجُل الطَّيِّب، إنما ينبغي أن يُساق، وقد كان يُساق بالفعل إلى صدقي باشا؛ فصدقي باشا كان قويًّا صلبًا يستطيع أن يتلقَّى الجد والهزل، وأن يصبر على الجد والهزل، لم يكن يحفل بشيء، ولم يكن يتأذَّى بشيء، بل لم يكن يصل إليه شيء مما كان يُكْتَب عنه، أو يُقال فيه.

أمَّا الرجل الطَّيِّب فدقيق الحس، رقيق المزاج، مترف مُحِبٌّ للترف، مؤثِّرٌ للعاقبة، حريص على السلم، مبغض للخصومات، كاره للجدال والنِّضال. فلا ينبغي أن يُهاجمه أو يُخاصِمه أو يتجنى عليه إلا الذين انتزعت الرِّحمة من قلوبهم انتزاعًا، واقتلعت الشفقة من نفوسهم اقتلاعًا، وصوَّرت قلوبهم من صوان، ونفوسهم من حديد.

وقد يقول هؤلاء النَّاس القُساة أن الرَّجُل الطَّيِّب قد خاصم صدقي باشا، وصبر لخصومته. تولى رِياسة الوزارة بعد أن أنزل عنها صدقي باشا، فلم يخف من خلافته، ولم يشفق من احتمال تركته، بل ما يزال يداور صدقي باشا ويناوره حتى اضطره إلى أن يستقيل من الحزب مرَّتين، هازلًا في الأولى وجادًا في الثانية، ثمَّ إلى أن يستقيل من مجلس النواب مرة واحدة هازلًا، ولكنه من غير شك سيستقيل للمرَّة الثانية، جادًا متى انتهى شهر الصوم، ومتى رأى في مجلس النواب كيف يجدُّ الجد، وكيف يدعو الزَّعيم أنصاره، فلا يُجيبه منهم أحد، ولا يعود إليه إلا صدى صوته الذي يملأ الهواء،

ثُمَّ لَا يَصِلُ إِلَى أُذُنٍ وَلَا يَطْرُقُ سَمْعًا، وَلَا يَنْتَهِي إِلَى نَفْسٍ.
وَإِذَا اسْتَطَاعَ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ أَنْ يَبْلُغَ بَطَاغِيَةَ مِصْرَ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ
مَا بَلَغَ، وَأَنْ يُذِيقَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَلْوَانًا؛ فَهُوَ قَوِيٌّ جَلْدٌ، وَهُوَ صَبُورٌ
صَلْبٌ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْتَمِلَ مِنَ الْجَدِّ وَالْهَزْلِ، وَمِنَ الْفَكَاهَةِ
الْمَلَاذِعَةِ وَالْدُّعَابَةِ الْمُرَّةِ، مِثْلَ مَا احْتَمَلَ صَدَقِي بَاشَا أَوْ أَكْثَرَ مِمَّا
احْتَمَلَ صَدَقِي بَاشَا.

وَلَكِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامَ غُلَاةٌ مُسْرِفُونَ، يَعْتَزُّونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَقْنَعُونَ أَحَدًا بِبَعْضِ مَا يَقُولُونَ؛ فَالرَّجُلُ الطَّيِّبُ لَمْ يَصْنَعْ
بِصَدَقِي بَاشَا شَيْئًا، وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا دُعِيَ إِلَى
رِيَاسَةِ الْوِزَارَةِ فَقَبْلَ رِيَاسَةِ الْوِزَارَةِ، وَلَوْ قَدْ خَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَدَقِي
بَاشَا لَمَا ثَبَتَ فِي رِيَاسَةِ الْوِزَارَةِ، وَلَكِنَّ الظُّرُوفَ أَحَاطَتْهُ بِسِيَاجٍ مَنِيْعٍ،
وَحِصْنٍ حَصِينٍ، وَاسْلَطَتْ عَلَى صَدَقِي بَاشَا جُنُودًا رَمَتْهُ فَأَصْمَتَتْهُ،
وَجَهَدَتْهُ فَاضْطَرَّتْهُ إِلَى الْإِنْهَزَامِ.

وَقَدْ كَانَتْ لِصَدَقِي بَاشَا دَرَعٌ مَتِينَةٌ حَصِينَةٌ تَزُلُّ عَنْهَا السَّهَامُ، فَلَمَّا
خَلَعَهُ الْحَكْمُ تَجَرَّدَ مِنْ هَذِهِ الدَّرَعِ، فَجَعَلَتْ السَّهَامُ لَا تَوُجَّهَ إِلَيْهِ حَتَّى
تُصِيبَهُ وَتَثْبِتَ فِيهِ، وَإِذَا جَسَمَهُ كُلُّهُ سَهَامٌ أَوْ آثَارُ سَهَامٍ؛ فَلَيْسَ الرَّجُلُ
الطَّيِّبُ هُوَ الَّذِي رَمَى، وَإِنَّمَا الظُّرُوفُ هِيَ الَّتِي رَمَتْ! وَلَيْسَ الرَّجُلُ
الطَّيِّبُ هُوَ الَّذِي أَقْصَى صَدَقِي بَاشَا عَنِ الْحَزْبِ وَإِنَّمَا الظُّرُوفُ هِيَ
الَّتِي أَقْصَتْهُ، وَلَيْسَ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ سَيَقْصِي صَدَقِي بَاشَا عَنْ مَجْلِسِ
النُّوَابِ، وَإِنَّمَا الظُّرُوفُ هِيَ الَّتِي سَتَقْصِيهِ!

وَإِذَنْ؛ فَلَيْسَ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ بِصَاحِبِ جِهَادٍ وَحَرْبٍ، وَلَيْسَ الرَّجُلُ
الطَّيِّبُ بِصَاحِبِ طَعَانٍ وَضَرْبٍ، وَإِنَّمَا الرَّجُلُ الطَّيِّبُ صَاحِبُ دَعَاةٍ
وَسَلْمٍ وَهَدْوٍ وَأَمْنٍ؛ فَتَوَجَّهَ اللَّوْمُ إِلَيْهِ، وَتَسَلَّطَ الْأَلْسِنَةُ عَلَيْهِ تَجَنُّ لَا
يَنْبَغِي، وَتَحَرَّشُ لَا يُطَاقُ. سَيَقُولُونَ: وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الطَّيِّبَ قَدْ ثَبَتَ
لِلْمُحَامَاةِ وَالْمَحَامِينِ، بَلْ هَجَمَ عَلَى الْمَحَامَاةِ وَالْمَحَامِينِ؛ فَأَنْذَرُ

وأعذر، ثم أبرق وأرعد، ثم هياً التشريع، ثم تقدّم به إلى المَجْلِسَيْن، ثم أصدره وجعله قانوناً، ثم أنكر المُحَامِين إنكاراً وجَهَلَهُم جهلاً، وأقام حفلين لم يشترك فيهما المحامون. ومن فعل هذا كله، ونهض بهذا كله؛ فهو خَلِيقٌ أَنْ يَحْتَمِلَ النقد، ويثبت للهزل والجد.

ولكنّ هذا الكلام كغيره من الكلام لا يثبت للنقد ولا يستقر أمام النظر الصحيح؛ فالرجل الطيب خير بطبعه لا يُحِبُّ الشرَّ، عَادِلٌ بِطَبْعِهِ لَا يُحِبُّ الجور، حسن بطبعه لا يحب السوء، هادئ بطبعه لا يحب الاضطراب، رفيق بطبعه لا يحب العنف. ومن كانت هذه حاله وتلك خصاله، لم يُهاجم المحاماة ولم يعرض للمحاميين؛ فليس هو الذي هاجم تلك أو عرض لهؤلاء، وإنما هي الظروف، وويل للناس من الظروف!

هي الظروف التي تجنّت على المحاميين كما يتجنّى خصوم الرّجل الطيب على الرجل الطيب، وأساءت إلى المُحَامِين كما يُسيء خصوم الرجل الطيب إلى الرجل الطيب؛ فالْمُحَامُون مَظْلُومُون، والرجل الطيب مظلوم أيضاً.

والظروف — وويل للناس من الظروف! — هي التي ظلمت هذا وهي التي ظلمت أولئك.

وقد انتصر المحامون وانتصفوا لأنفسهم، ولكنهم لم ينتصروا على الرّجل الطيب؛ لأنّ الرّجل الطيب لم يُحَارِبَهُمْ، وإنما انتصروا على الظروف وانتصفوا لأنفسهم من الظروف فالذين يلومون الرّجل الطيب يسرفون عليه ويسرفون على أنفسهم، وإذا لم يكن بد من أن يلوموا، وإذا لم يكن بد من أن يقسوا، وإذا لم يكن بد من أن يجربوا مهارتهم في النقد، وبراعتهم في الهزل والجد؛ فليدعوا الرجل الطيب وما هو فيه وليوجهوا لومهم كله، ونقدهم كله، وجدهم كله، وهزلهم كله إلى الظروف؛ لأنّ الظروف هي التي جنت ما يُنكرون من نشاط

في حرب صدقي باشا، وعنف في حرب المحامين، وإعراض عن جلائل الأعمال، ونوم عن عظام الأمور. بل الظروف هي التي أزعجت هذا الرجل الطيب، وحملته من أوروبا حملاً على جناحي نعمة حتى أقرته في رئاسة الوزارة، ثم أجرت على يديه البريئتين ما أجرت من الأعمال.

والقراء جميعاً يشهدون أنني لا أكره النقد، ولا أخاف الإقدام عليه، ولكنهم يشهدون أنني لا أحب زياداً ولا سيرة زياد، ولا آخذ البريء بذنب المسيء. والرجل الطيب بريء، بريء من كل ما يوجه إليه من لوم؛ لأنه طيب حقاً وصدقاً، كما تقول الشعب، وإنما المسيء الذي يستحق اللوم كل اللوم هي الظروف.

لذلك لا ألوم إلا الظروف، ولا أحب لخصوم الوزارة أن يخاصموا إلا الظروف، فإذا لم يكن بد من أن تذكر سياسة الركود، فلتذكر على أنها سياسة الظروف، وإذا لم يكن بد من أن تقترح الراحة في سفينة نيلية؛ فلتقترح هذه الراحة على الظروف! ستقول: وكيف تستريح الظروف في دار أو في سفينة؟! وكيف تصعد الظروف في النيل أو تهبط إلى البحر؟! فأقول: وكيف قهرت الظروف صدقي باشا؟! وكيف نصبت الظروف حربها للمحامين؟! ألم تفعل ذلك كله على يد رئيس الوزراء؟! فلتسترح إذن في شخص رئيس الوزراء.

ستقول: فاللوم موجه إلى رئيس الوزراء ما دامت الظروف لا تأتي شيئاً ولا تحتل شيئاً، إلا إذا تقمصت رئيس الوزراء؛ فأقول: هذا صحيح، ولكن فرق عظيمًا بين أن تلوم رئيس الوزراء من حيث هو صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا أو تلومه من حيث هو مظهر لما تريد الظروف، ولما تأتي الظروف من الأعمال.

وأظن أن رئيس الوزراء نفسه ترضيه هذه التفرقة، ويريد هذا النحو من تصوير الأشياء؛ فهو لا يلام لأنه رجل طيب حقاً وصدقاً، ولكن

تُلَامُ الظروف في شخصه؛ لأنَّ هذه الظروف مَأكِرَةٌ مَاهِرَةٌ غَادِرَةٌ
تَأْبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا شَخْصٌ وَإِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا اسْمٌ، وَقَدْ بَالِغَتْ فِي
الْمَكْرِ وَالْمَهَارَةِ وَالْغَدْرِ؛ فَتَقَمَّصَتْ شَخْصَ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ، وَتَسَمَّتْ
بِاسْمِهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، فَلَنَلُمُهَا فِي هَذَا الشَّخْصِ وَلِنَدْعُهَا بِهَذَا الْاسْمِ
حَتَّى تَتَقَمَّصَ شَخْصًا آخَرَ أَوْ يَتَقَمَّصَهَا شَخْصٌ آخَرٌ، وَحَتَّى تَتَسَمَّى
بِاسْمِ آخَرَ أَوْ يُفَرِّضَ عَلَيْهَا اسْمَ آخَرَ!
وَلَعَلَّ هَذَا أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا؛ فَيَسْتَرِيحُ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ حَتَّى مِنْ لَوْمِ
الظُّرُوفِ.